يا لها من قاسية!

همدان دماج

كنت متعباً، والرياح قوية وباردة. الأقدام، هنا في محطة انتظار الباص، صارت كتلاً من جليد. جواربي المتعددة لم تستطع مقاومة البرد الذي بدأ يداعب أصابعي بقسوة. خطواتي صارت ثقيلة، وحذائي الشتوي الهائل يكاد يبتلعني. عقيمة حقاً لحظات الانتظار هذه. متى سيأتي هذا اللعين! أكاد أجن من عدم معرفتي، رغم خبرتي الطويلة، بمواعيده الليلية. لا أدري... يراودني إحساس يقيني بأنه قد غادر للتوّ!

- لماذا لم تسرع قليلاً بدلاً من مغازلة بلاط الرصيف!؟

تستهلك مثل هذه الأسئلة ما تبقى من وقود الصبر المتجمد! خاصة وأنني "أغازل بلاط الرصيف" كل ليلة تقريباً.

كان عليَّ أن أنتظر نصف ساعة أخرى، موعد الباص القادم؛ كلا، بل 45 دقيقة، هذا ما تقوله هذه الجداول المعقدة. أنتظر

قليلاً. إنني أقرأ جداول مختلفة. يا إلهي! لا أستطيع حتى تفسير هذه الجداول.

- كم أنا غبي!!

قلتها بحنق ورميت بجسدي المتهالك على أحد الكراسي المرتفعة لمحطة الانتظار، وبدأت أتأمل صفحة الليل في شارع مطاعم البيتزا، المنعدم الحياة في مثل هذه الساعة. كل شيء مضاء في هذا الشارع، لكن لا أحد ولا شيء يتحرك على الرصيف سوى ظل ساقَيّ المتمرجحتين والمثقلتين بحذائي الشتوي الضخم. كان السكون يلف المكان ويزداد وحشة.

- لا بد أن أترك هذا المطعم؛ إنهم يستغلون جهدي ولا يدفعون بسخاء كباقي المطاعم المشابه! حتى وجبات الاستراحة بدأت بالتقشف... يا لهم من...!

* * *

لا أحد سواي في محطة الانتظار. يبدو هذا الأمر متوقعاً، ففي مثل هذا الطقس يحفظ الجميع جداول الباصات عن ظهر قلب.

بدأت أتأمل انعكاس ضوء السيارات القليلة بعجلاتها المسرعة على الأسفلت المبتل بتفاصيله الخشنة التي كانت تظهر ثم تختفي في عتمة الشارع الطويل. أدركتُ أن الزمن بدأ يحرك عجلاته أيضاً، عندما بدأت محطة الانتظار تستأنس "بأنفاس" جديدة. كانوا صامتين كالعادة، يكاد المرء في بعض الأحيان يشك في قدرتهم على النطق.

بعد لحظات بدأتْ أضواء الباصات تظهر في بداية الشارع. تأملت بترقب الرقم المضيء في واجهة الباص القادم.

- اللعنة!!

تناقصت الأنفاس الصامتة في المحطة، وبدأت عيناي مرة أخرى بمغازلة الرصيف، بينما كانت رجلاي المنهكتان تذرعان صدره المبتل ذهاباً وإياباً بخطوات مثقلة.

- لا فائدة! لن يأتي هذا "اللعين" بسرعة.

رميت بحقيبتي المكتظة بملابس العمل من على ظهري، وارتميت على الكرسي مرة أخرى، عبثاً، أنتظر الباص رقم 8. أنني أعرفه جيداً. هذا الباص رقم 8، عنيدٌ كمدرس الفيزياء الأصلع.

كنت لا أزال مستغرقاً في إدراك العلاقة بين مدرس الفيزياء والرقم 8، عندما انعكس ضوء السيارات القادمة على شيء يجلس بجواري لم تلمح عيناي تفاصيله من قبل.

- يا إلهي!

التفتُّ متعجباً... متى جلستْ هذه الجميلة بجواري!؟

كان ضوء مصابيح الشارع يداعب خصيلات الشعر الذهبي المنسكب كأمطار أبريل الغزيرة، والذي عجزت قبعتها السوداء عن أن تخفي ثورته الغجرية. كانت تنظر إلى الأمام شاردة الذهن، وهذا ما شجعني أن أمعن النظر بحرية إلى وجهها الناعم البريء، وعينيها الصافيتين اللتين يشع منهما بريق متلألئ. كانت تلبس معطفاً أسود أنيقاً، مبطناً بصوف رمادي يداعب رقبتها الدافئة، بينما انسدل شعرها إلى الخلف يكاد يلامس أرض الرصيف. كم تمنيت في تلك اللحظة لو أنني، ولو لثوانٍ قليلة، حقيبة يدوية كتلك التي تنام فوق ساقيها الرشيقتين!! كنت كلما أمعنت النظر ازداد في داخلي شعور قوي بأنني أعرفها جيداً.

* * *

أحسستُ بالدفء عندما صعدنا معاً الباص الذي كنت قد تنازلت عن حقدي عليه. وتأملت بشغف أصابعها الرشيقة وهي تستلم التذكرة من السائق الذي بالغ بابتسامته المتصنعة. تعمدتُ الجلوس خلفها قليلاً في الجانب الآخر ليتسنى لي مشاهدتها بوضوح. كانت قد وضعت حقيبتها على الكرسي المجاور، بينما ألصقت وجهها بزجاج النافذة البارد. وتحرك الباص. كان جسدها يتمايل بشكل متناغم وكأنه يتصرف وفق قوانين فيزيائية خاصة به. كنت قد أيقنت في تلك اللحظة، وبما لايدع مجالاً للشك، أنها أجمل امرأة رأيتها في حياتي. وأيقنتُ أيضاً أنني قد سقطتُ سقوطاً سريعاً في غرامها الساحر!!

* * *

أمعنت النظر في تقاسيم وجهها الوضاء... كم هو متناسق وجميل! شفتاها الورديتان تخفيان بين الحين والآخر أسناناً متسقة البياض، وجبينها البرونزي، وعيناها المتلألئتان تطيران بي آلافاً

من الأميال نحو عالم جميل ذي كائنات وضاءة. كـان كـل شـيء في الحافلة قد اكتسب قدراً من الجمال. حتى النقوش الملونـة علـى قماش الكراسي الجديدة في الباص اكتسبت معنـى مختلفـاً هـذه الليلة!

فتحتْ حقيبتها برفق وأخرجتْ بعض الأوراق الملونة، تبين لـي بعد لحظات أنها بطاقات "فالنتين"، عيد الحب الـذي لم أعرفـه سوى هـذه اللحظـات. وتسـاءلتُ: لمـن يـا تـرى سترسـل هـذه البطاقة؟! وهل من سترسل له جدير بحبها! يا له من نذل! كيـف له أن يستأثر بكل هـذا الجمـال الكـوني لوحـده!؟ وتسـارعت الدماء في عروقي، وبدأت أفكر: إنـه لا يسـتحقها دون شـك، لا يقدر جمالها كما ينبغي، سطحي إلى آخـر درجـة، سـكير وعربيـد وزير نساء، لا يفقه في أمور الفن والعشق، ربمـا يضـربها أيضـاً، ذلك السافل...! كان شعور كبير يتوالد في داخلـي نحـوه بـالغيرة والحسد ربما، بل والحقد أيضاً.

- لماذا تحبه...؟!

طأطأت رأسي كعاشقٍ مكلوم.

* * *

عَلتْ في مقدمة الباص أصوات طفولية مرحة. كانت امرأة بدينة قد صعدت لتوها وفي حضنها طفلها الصغير المختبئ داخل بدلته الصوفية المنتفخة، يُنَقّل عينيه الصغيرتين بين أرجاء الباص. جلست المرأة أمامي ووضعت صغيرها على الكرسي المجاور. كانت فاتنتي قد أدخلت ذلك الكرت "اللعين" إلى حقيبتها، ذلك الكرت الذي أثار في داخلي تلك المرارة، وبدأتْ تداعب الطفل بنظرات ودودة وحركات غاية في اللطف؛ كان الطفل سعيداً بتلك المداعبات الرقيقة، وكنت دون شك أسعد منه بكثير؛ انتعشتُ من جديد، وزاد شغفي ولهفي على الحياة.

كان الباص يتحرك بسرعة، لا توقفه في مثل هذا الوقت المتأخر غير الإشارات الحمراء التي بدأت تمارس هوايتها بعناد السائقين. كنت مرهقاً للغاية، وبدأت جفوني الصخرية تثقلان. كان اهتزاز الباص يحطم بداخلي أعمدة الصحو ويسقطها تباعاً.

***

استيقظتُ فزعاً. لم تكن هناك. وكان الطفل قد استسلم للنوم في حضن أمه. وتلفتُّ يميناً ويساراً... لقد رحلتْ.

- كيف غادَرتْ دون أن توقظني!؟

حدثتُ نفسي باستنكار ودهشة: كيف استغلتْ تعبي ونومي وهربتْ دون أن تودعني!؟ لقد كان بودي أن أقول لها كلاماً كثيراً، كثيراً... أن أقول لها باختصار إنها أجمل امرأة في العالم، وأنني أحببتها حتى الجنون... إن الدقائق التي قضيتها معها في الباص كانت عمراً كاملاً من العشق والغرام، وأنني...

ضغطتُ -بعصبية وانفعال- الزر الأحمر، فأضاءت إشارة التوقف، ونزلت من الباص غير آبه لتوبيخ السائق، الذي تضايق من ضغط الزر بصورة متكررة.

سرتُ في طريقي المعتاد نحو السكن الجامعي، منكس الرأس، تدور في ذهني أفكار عجيبة، وتجيش بداخلي أحاسيس مضطربة، بينما بدأت زخات المطر تضرب بعنف قماش المظلة الرخيصة.

توقفت فجأة، وحدثت نفسي متسائلاً، رافعاً يدي باستغراب:

- كيف جاز لها أن تتركني هكذا دون كلمة وداع، بعد كل الذي صنعته من أجلها!؟ يا لها من قاسية!

صيف 1998